



القرء يحاولون الاقتباس دائما (لوحة للفنان علي رضا درويش)



قرء تفتنهم الاقتباسات (لوحة للفنان فؤاد حمدي)

فستبقى حاضرة في أذهان القرء، في الوعي الجمعي الذي أفرزها وحققها في خلية العسل.

الاقتباسات الحية الصادقة، التي ينتجها السياق بنعومة وبشكل طبيعي، تبقى حاضرة في أذهان القرء، في الوعي الجمعي

سيظل القرء يستحضرونها كلما استدعتها الظروف، فتجد أحدهم يقول "أفة حارتنا النسيان"، وتسمع آخر يردد "الحياة مأساة والدينا مسرح ممل"، أو شابا متفائلا يقول "بالطمع أغير كل شيء وأخلفه". جميعها عبارات أجراها السياق على لسان شخصيات من لحم ودم، فتماست مع القرء، وسيظل يتردد صداها كلما استدعتها سياقات مشابهة.

قد يقتبسون إحدى عبارات الشيخ عبدربه الثالث، أو تساؤلات كمال عبدالجواد. كم من سياق مناسب لمثل هذه العبارات المحملة بالحكمة أو المشحونة بالعاطفة؛ فكيف تكتمل صورة الجسد المهيم والحكيم في رواية "قلب الليل" مثلا، دون أن يصدر عنه الكلام في صيغة عبارات مفعمة بالحكمة واليقين؛ ما ينسحب كذلك على الشيخ الزعبلوي في مجموعة "دينا الله"، وعلى الجد الموصي في رواية "الوصايا" للاديب عادل عصمت، وعلى زوربا اليوناني في أيقونة كانازاكس. جميعها شخصيات أياقونة كانازاكس. جميعها شخصيات أياقونة كانازاكس. جميعها شخصيات أياقونة كانازاكس.

وبلمحة سريعة لسوق الكتب: مواقع وصفحات دور النشر، المكتبات ومناظرة الإلكترونية، مجموعات القرء، صفحات الروائين، ستقع أعيننا على اقتباسات تتناثر في كل مكان؛ جمل ذات وقع خاص، تشبه الأقوال المأثورة أو الحكم المتوارثة.

نتساءل هنا: هل ثمة سياق سردي وبشكل طبيعي، ودونما شعور باندياسها بين السطور؛ ذلك أنها تبدو كاملة بذاتها، جميلة وذات رنين خاص، لكنه رنين معدني، كما يصدر عن خاتم ذهبي مدسوس في جوف سمكة مقلية؛ ففاجئك صلابته بين أسنانك فيما أنت تلوك السمكة، فيستوقفك.. تجد نفسك تقول: هذا ليس سمكا، ليس من نسيج السمك ولا له مذاقه الدهني، بل شيء مدسوس، ربما أفضل من السمك، قد احتاج إلى أن أدفع ثمنا أكبر لاقتنائه، لكنه يظل مدسوسا على الطعام مفارقا للسياق ولا يتناغم معه أو يسهم في تعميق معناه.

هذا ما يطل علينا واضحا في الكثير من الروايات حديثة الإصدار، روايات ليست إلا حزمة من المقاطع ذات الجرس، من العبارات المشحونة بانفعال مبالغ فيه، من الاقتباسات المنجورة على طريقة القص واللصق، لا تصنع سياقاً ولا تحمل القرء إلى غايته ما، بل هي محض أدعاء لحكمة مُدعاة.

الوعي الجمعي

هل يعني ذلك أن الاقتباسات في جملتها زائفة، فارغة من أي معنى؛ بالطبع لا؛ فمن رواية صديقي الروائي الجاد، ذات السرد المنساب والبناء المحكم، أمكنتني استخراج العديد من الاقتباسات الجميلة المهمة؛ وأعني هنا العبارات المكتوبة بقرن، والمسبوكة بحرفنة في سياق السرد؛ إنها جميلة في ذاتها، فضلا عن اتساقها القائم مع سياقها السردية؛ كأنها العين في وجه شديد الحسن، أو طية في وشاح أبولو وتمثاله الرخامي الشهير، إنها عرفة عذبة من مياه نهر جار.

تمثل الحكمة المكثفة بداخل عبارة محكمة البناء جزءاً أصيلاً من السرد الروائي، طالما تخلت الكاتب عن القصدية والافتعال. وكثيراً ما يقتبس قراء الأدب المصري الراجل نجيب محفوظ، كإفحار، مثال على السرد المحكم، إحدى عباراته المسبوكة بجمال أخاذ، والمنقوعة في الإحساس العميق بالحياة، إذ يتماهون معها في مواقف حياتية عديدة.

الاقتباسات.. خاتم ذهبي في جوف سمكة مقلية

ظاهرة بات لها سحرها إما ادعاء للحكمة أو خلاصة لتجربة أدبية

بينما نجد في المقابل عدداً من الروائيين المخلصين لفن الرواية يقفون موقف الضد من هذا الاتجاه، ينظرون إلى الصيحة بانزعاج شديد، بل ويعتبرون تمييز الروايات على أساس احتوائها على اقتباسات وعبارات مُلهمة في ذاتها لا يعود كونه ابتداءً لفن الكتابة الروائية.

الرواية في مفهوم هؤلاء كل مُحكم، لا يمكن اجترأ مكوناته والتعامل معها باعتبارها وحدات سردية مستقلة، وتحوي معناها العام وتأثيرها الخاص بعيداً عن السياق. وثمة تناقض هنا بين وجهتي نظر القارئ الساعي وراء الإلهام، والكاتب الباحث عن الكمال الفني، تناقض يدعو إلى التأمل.

حدث أن سألني صديقي الروائي الجاد: هل بإمكانك أن تستخرج اقتباسات من روايتي؟ قالها باستنكار واضح، إذ كان ممن يستأوون كثيراً من موضحة التغني بالاقتباسات الروائية، ممن يرون الرواية كتجربة سردية ولغوية متكاملة، ترتكز على الوحدة والتماسك بين العبارات، لذا تفقد معناها حال تقسيمها لمقاطع مستقلة؛ أجبته: بالطبع، أستطيع استخراج اقتباسات عديدة من روايتك؛ إذ كنت أرى في كتابة صديقي الموهوب أسلوباً سردياً خاصاً، ونكهة مميزة في صياغة العبارات، لذا رأيت أن الكثير من عباراته وفقراته تحتفظ بجمالها الأخاذ، سواء قرأناها داخل سياقها الأصلي أو خارجها.

برغم قناعتي تلك، يبقى لصديقي الروائي، ولكل من يتمثلون مظهر روح الروائيين الأضلاء، حق كامل في إبداء التخوف إزاء هذه الطريقة في التفاعل مع النصوص الروائية. فالرواية مُحكمة البناء كل لا يتجزأ فعلاً، معمار يقوم الروائي بتشييده طابقاً فوق طابق، على قواعد فنية يُرسخها بالكد والتأمل، ويحيطها برويسته الخاصة للحياة. تلك التي كانت دافعه الأصيل للكتابة، والذي يحرصه على التحرير والتدقيق والمراجعة.

الرواية ليست "كولاجاً" من المقاطع الرنانة والعبارات ذات البريق، كما يتبدي لنا اليوم من طريقة تفاعل بعض القرء مع الروايات في أثناء القراءة وبعدها، كان يقتبس القرء مقطعاً أو عبارة من الرواية التي يقرأها، كي يقوم بنشرها على مواقع التواصل الاجتماعي، محيطاً اقتباسه بالقلوب الملونة والوجوه المتأثرة بكافة الانفعالات، كتعبير عن شعوره إزاء ما قرأه للنو. هل ثمة ضرر يلحق بالكتابة الروائية، جراء هذا الشكل من التعاطي مع القرء؟ ربما.. فمن الجائز جداً أن يستلحي الروائيون هذه الطريقة في التفاعل مع القرء، بل وهذه الوسائل المستحدثة في الدعاية لرواياتهم على صفحات القرء ومجموعاتهم الخاصة، فيسعون، بقصد أحياناً أو بدافع خفي لا يدركونه في حينه، إلى الرج بعبارات رنانة بين طيات الحكاية، لأجل مغازلة القرء وتحفيزهم على المزيد من التفاعل مع نصوصهم؛ إنه هوس التصفيق الذي ينتاب الممثل المسرحي، فيدفعه إلى مبالغات مفتعلة وفي غير محلها، تضر حتماً بادائه وتصبغه بالتصنع والافتعال.

بتصفح سريع لمواقع الفيسبوك والصفحات الخاصة والعامّة للقرء والمهتمين بالأدب نجد ظاهرة باتت منتشرة بكثرة هي ظاهرة الاقتباسات، أحياناً تكون جملاً مقتطعة من مؤلفات لكتاب وشعراء ومفكرين جدد أو قدامى، وأحياناً تكون مزيفة وأقوالاً تنسب إلى كاتب لا علاقة له بها. من ناحية أخرى باتت الاقتباسات طريقة من أجل الترويج للكتب، ما أثر حتى في الكتاب أنفسهم الذين صاروا يقمون بتعسف جملاً برأفة تصلح للاقتباس في أعمالهم، للترويج لها.

جودة الرواية، يستخدمها المسوقون المختصون في ترويج الكتب: الأول يشير إلى سرعة القارئ في تقليد الصفحات، ما يوحي بكون الرواية مشوقة إلى درجة تجعل القارئ لا يكف عن تقليد صفحاتها حتى يصل إلى نهايتها؛ أما المؤشر الثاني فيشير إلى النقيض بشكل أو باخر، حيث يصف الرواية بقوة تأثيرها وإلهامها القارئ، ما يعني أن الرواية تحتشد باقتباسات ذات تأثير طاع، تُجبر القارئ على التوقف أمامها ووضع الكتاب جانباً، حتى يندوq العبارات ويستحلب تأثير الكلمات ببطء وروية.

بين هذا وذاك، يصطف القرء خلف الكتب ذات الأحداث المشوقة أو ذات الاقتباسات المهمة، بحيث يتكون فريق من الداعمين للكتب التي تحتشد بعبارات مسبوكة يمكن اقتطاعها من سياق النص، وقرءتها كإقتباسات مستقلة بذاتها، ويعتبرون ذلك دليلاً على نجاح الرواية في إلهامهم والتأثير عليهم بطريقتها المميزة.

يتحمس هذا الفريق لرواية على حساب أخرى، بعدد الاقتباسات التي يُمكنه اقتطاعها من سياق النص، وربطها بسياقات أخرى بعيدة عنه،

الحكمة المكثفة بداخل عبارة من السرد الروائي، طالما تخلت الكاتب عن الافتعال



أحمد القرملاوي
كاتب وروائي مصري

بمجرد الضغط على أيقونة البحث في محرك غوغل، تظهر للقرء كثيراً عناوين على شاكلته: خمسون اقتباساً مُلهماً عن الحياة، والأربعون اقتباساً الأقوى في تاريخ الروايات، والاقتباسات المئة الأكثر شهرة عن الحب.

على القارئ أن يثق تماماً في كون المحرك يعرف الوقود الذي يحثاه، إذ يتغذى غوغل ليل نهار على الكلمات المفتاحية التي يُكثر من استعمالها المستخدمون، ومن بينها كلمة اقتباس. تلك الكلمة القصيرة المحببة، والأنيبه بدعة هينة على سطح فانوس سحري، وتعني تلك العبارات الموجزة، أو الفقرات القصيرة المركزة، التي صارت هدفاً لعدد كبير من المتصفحين في مجالسي الأدب والرواية، أكثرهم من الباحثين عن الضوء المخبوء في الكلمات، أو عن نشوة فريدة لا يمنحها غير العبارات المسبوكة بإتقان.

ادعاء الحكمة

لظاهرة البحث عن الاقتباسات المؤثرة جذورٌ تمتد بعيداً في الزمن؛ ربما تعود إلى فلاسفة الزمن عند اليابانيين، أو إلى الأحاديث الشريفة وأقوال السلف الصالح لدى المسلمين، وربما إلى جذور أبعد من ذلك إغريقية وبابلية ومصرية قديمة، فالبيشر في بحث دائم ودائب عن الحكمة المبطنة في الكلمات.

غير أن الظاهرة تفاقمت خلال السنوات الماضية، خاصة بين أولئك الشغوفين بقراءة الروايات، إذ صاروا يتداولون الاقتباسات، ويضمنونها في منشوراتهم على تويتر

ومراجعاتهم على "جود ريدز" وغيرها من تطبيقات قراءة الكتب، بل صارت بعض الكروت التذكارية التي تُباع في المكتبات تشتمل على اقتباسات من الروايات ذات الصيت، إلى درجة جعلت منها أداة تسويقية أكثر نجاعة وتأثيراً في مبيعات الكتب.

السؤال هنا: هل شغف القرء باقتباسات الروايات هو ما جعلها أداة دعائية مؤثرة إلى هذه الدرجة؛ أم أن المختصين في تسويق الكتب هم من ساهموا في نشر هذه الثقافة بين القرء أملاً في سرعة إنجاز مهامهم في بيع الكتب، بل وتوظيف القرء كمساعدين متطوعين لن يطبلوا أجرًا مقابل خدماتهم؛ وأياً ما تكون الإجابة، يبقى للاقتباسات الروائية سحرٌ خاص في أذهان القرء، سحر يزداد توهجاً كلما مرّ زمن أطول على صدور الرواية. ثمة مؤشرات على